المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد السادس عشر، يونيو ٢٠١٨ م

المأسات في شعر إلياس فرحات : دراسة فنية

محمد ظهير الإسلام *

Abstract

Elius Farhat (1893-1976) is one of the famous émigré Arab poets who used to live in Brazil, Latin America. Due to the impoverishment, he could not carry out his academic education after finishing the primary level. Although he was not taught the discourse of Arabic rhythm, rules of Arabic grammar and Rhetoric during his lifetime, the application of all these have been clearly observed in his poems. Throughout his stay in Brazil, he lived on selling various commodities by peddling. During these days, he faced severe twinge of suffering, impatience of depression, agitation of melancholy and the flames of denial. Hence, he took the pen as a paint-brush of an artist and portrayed his memoirs before the people based on his own understanding and experience of distinct philosophy derived from the practical circumstances. For the depiction of his life experience and the narrative of his lifetime harsh conditions within his poems swiftly spread throughout the abroad and the whole Arab land. Being charmed and vigorous, people began to recite his poems in the form of songs. In this article, together with a short description of his biography, we will make an effort to elucidate the artistic portrayal of his poems, which embrace the description of suffering.

إنه شاعر نصراني من أبرز شعراء المهجر العرب في البرازيل، وأعرقهم في الشاعرية الحقة، لم يقرأ إلياس فرحات العروض والقواعد والبلاغة في الحياة كلها، ومع ذلك توجد هذه في أشعاره. وإنّما الفضل كله لطبيعته الموهوبة، ولاستعداده الفطري للشاعرية الصحيحة. فإذا إلياس فرحات، الزجال المغمور، شاعر يملأ دنيا الضاد ألحاناً عبقرية، تزغرد في مسمع الأيم عن حنجرة صافية الرنين، وإذا قصائده أناشيد يتغنى بها الناس في المهجر وفي ربوع الشرق العربي بإعجاب وإكبار ونشوة. ذاع

* أستاذ مساعد، قسم العربية، جامعة داكا

صيته وانتشر شعره فى ربوع العالم بسبب تجارب الحياة وظروفها القاسية وقد أمدته بعناصر غنية عملت على تكوين شخصيته الأدبية وصقل موهبته الشعرية. وأما **الفن** فهو من الفنون يستخدم في معان مختلفة منها: النوع، والضرب من الشيئ.[1] والفن: هو تعبير الفنان بنتاجه عن مثل الجمال الأكمل، وإنه يستعمل في معنى قواعد خاصة بحرفة أو عمل، فنون الشعر: أنواعه، والفنون الجميلة: التصوير، والنحت، والموسيقى، والشعر، وأيضا يستعمل في معنى الرسم، وما إليها.[2] وفي الاصطلاح، الفن: "هو إنتاج عناصر مبتكرة بطريقة إبداعية يكون لها اثر جمالي على المتذوقين".[3] **فالدراسة الفنية:** هي فن تعالج بها النصوص من الشعر والنثر وتميز بها الأساليب المتنوعة، استعانة بقواعد اللغة، وأصولها، وبلاغتها، تأثرا بجزالة الألفاظ وجمال المعاني، وارتباطا بالصور الخيالية.[4]

وأنا أريد فى الصفحات التالية أن ألقى الضوء على نبذة عن حياة إلياس فرحات وأحلل ما في أشعاره من المأسات دراسة فنية حتى ينكشف المرام.

نبذة عن حياة إلياس فرحات

هو إلياس حبيب فرحات شاعر نصراني لبناني مهجري كبير، ولد في نوفمبر عام 1893م ب" كفر شيما"[5] القرية الصغيرة بجبل لبنان. تلك القرية الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة بيروت، جادت على فتاها إلياس فرحات بفطرة عجيبة. جوهرها نبوغ ومظهرها ابتذال، لم تميزه بشيئ عن أبناء الضيعة.[6] فنشأ في رعاية أبويه، وحين بلغ السن التي تؤهله للالتحاق بالمدرسة الأولية ألحقه أبوه بها ليتعلم، فتلقى علومه الابتدائية فيها ثم تعلّم في مدرسة الدّير عند أحد القسوس ثم انتقل إلى مدرسة الشويفات ثم "وادي الشحرور". فحصل على ضئيل الحظ من الثقافة المدرسية لأنه لم يستمر بها طويلاً حتى تركها وهو ابن العاشرة من عمره،[7] ليدخل مدرسة الحياة ويأخذ الحكمة من تجاربها القاسية معتمدا على نفسه في تحصيل معارفه. ثم ذهب إلى وراء الرزق. فكان يتدرب على المهن اليدوية كالنجارة وتفتيش الكراسي وتنضيد حروف الطباعة في بعض مطابع الصحف والمجلات لعله يجد فيها طريق النجاح. ففي فترات الفراغ من العمل جرى على لسانه شعر الزجل اللبناني المعروف بالقرادي[8] ورثه عن أبيه وأصبح الفتى اليافع ينازل الزجالين المشهورين في المجالس ويلفت الأنظار بسرعة خاطرة وحدة ذهنه لأن نفسه تتفتح وموهبته تنجلي. وأما أبواب الرزق فلم يجد مفتاحا

يعالجها به، وقد قضى سبعة أعوام في البحث عنه.[9] ولما ضاقت سبل العيش بفرحات في وطنه عزم الهجرة إلى المهجر الأمريكي فوصل إلى البرازيل عام 1910م[10] ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره فانضم إلى أخويه وديع وأسعد. وهما يسكنان في قرية مارينا لولاية ميناس جيراس (Minas Gerais). ومارس هناك أعمالا مختلفة مثلا تنضيد الحروف في جريدة "الوطن" لصاحبها الشّاعر شبلي ملاط ثم في جريدة "الحقيقة" لصاحبها الشّيخ أحمد عبّاس الأزهري، وبيع المأكولات العربية، وتجوله في مجاهل البلاد لعرض مساطر التجار، وتربية الخنازير والدجاج والحملان ثم جباية اشتركات الصحف في البلدان الداخلية حتى ظل لمدة عشرين عاما في هذا الكفاح المرير. فشاعرنا إلياس فرحات عاند الحياة بالسعي وراء الرزق منتقلا من بلد إلى بلد آخر ولكن الرزق كان يهرب منه، يجوع ويعرى ويعيش في غرفة حقيرة، وهو لا يملك إلا ثوبا بسيطا[11] حيث قال:

أغرب خلف الرزق وهو مشرق + واقسم لو شرقت راح يغرب [12]

وكل ذلك لم يمنعه في أوقات من القراءة ومن كتابين: جغرافية "فانديك" ومزامير داؤد النبي، الذين كانا يحتويان في مكتبته،[13] وما حمل معه من خصلة الشعر التي زودته محبوبته في كفرشيما، والتي أوحت إليه فيما بعد بقصيدة مشهورة، منهها :

خصلة الشعر التي أهديتنيها * عندما البين دعاني بالنفير

لم أزل أتلو سطور الحب فيها * وسأتلوها إلى اليوم الأخير [14]

وله أشد الولوع بالقراءة، أعلى الهمة لكسب العلم، أقوى الجلد على الدرس والتحصيل. ثابر على المطالعة والاقتباس حتى تملك البيان في هنيئة قليلة من الزمن، وجعل يمارس ويتمرن على نظم الشعر متدرجا من العامي إلى الفصيح ومن التقليد إلى الإبداع والتجديد،[15] دون أن يتدرس في حياته كلها الصرف والنحو والعروض[16] ولكنه كان يستعين بأرباب العلم ويعرض عليهم شعره فيصححوا له الأخطاء اللغوية.[17] فاستفاد استفادا كثيرا من معاشرة الأدباء ومطالعة الكتب والمجلاّت.

وفي عام 1918م نزلت به النكبة الكبرى بأن يحترق طرف ثوبه بالحريق، فاتفق أصحابه على أن يبتاعوا له بدلة بالأجل ليقدر أن ينتقل بين مختلف ولايات البرازيل، باعتباره ممثلا لمجلة "الدليل" في العاصمة. ولكن حل به سوء حظه فاحترق كُمّ ردائه الجديد، الذي أحرقته شرارة من مدخنة القطار قبل وصوله إلى المحطة الأولى وبعث لأصحابه أبيات شعر[18] يقول فيها:

كأنّ الهواء مع النار لمَّا * رآني لبست الجديد اتفق
فجاء بها من دخان القطار * ونثرها فوقه فاحترق
فقلت أعاتب ربى مشيراً * إلى الحرق وهو كباب النفق
إلهي، تضن علىّ بثوب * وتكسو الغصون ثياب الورق...
ولكن أرى دون تجديده * شقاء الأسى وسيول العرق[19]

ولم يتسع الرزق في ولاية ميناس (Minas) فرحل إلى سان باولو (Sao Paulo) فاتصل فرحات فيها بالشاعر القروي رشيد سليم الخوري وكان يسمعه شعره فيقول له: "إن أحسن ما في شعرك أنك تنظمه ولا تعرف أن تقرأه ..."، ذلك لأنّه كان يجهل أبسط قواعد الإعراب.[20] ثم اشترك مع توفيق ضعون على إصدار مجلة "الجديد" في سان باولو سنة 1919م، ولم يطِل عمر هذه الشّراكة. ثم في تحرير جريدة "المقرعة" التي أنشأها سليم لبكي. ونشر أول قصيدة له في جريدة "أبو الهول" التي كانت تصدر في البرازيل، ونشر أيضا شعره في جريدة "الأفكار" و"المقرعة".[21] وساهم مع الشاعر شكر الله الجر والأدبيب ميشال المعلوف في تأسيس العصبة الأندلسية في أميركا الجنوبية.

وقد تزوج إلياس فرحات عام 1921م من السيدة جوليا بشارة من بشرى، التي تمت بصلة قرابة بالأديب جبران خليل جبران، وخلف أربعة أولادهم: ليلى، خالد، عصام وسعاد. و لكنه لم يذق في حياته طعم اللى والرضاب و إن احترم الزوجية فلا يشير إلى ذلك الطعم إلا بحسرة التائب بعد فوات الشباب[22] وهو يقول :

لو يعود الشباب عاد شبابي * عند خمرية اللى و الرضاب ...
فر عصفور شبابي من يدي * فعصافير الهوى تبكي عليّ[23]

لم تستقر حياة فرحات في مكان واحد، فهو يملك روحا لا تعرف الاستقرار أو الهدوء، فتراه ينتقل بعد زواجه أيضا من مدينة إلي أخري ومن ولاية إلي ولاية ومن عمل إلي عمل. واستمرت حياة فرحات علي هذا النحو؛ معاناة ومشاق من أجل العيش في المهجر. وهو يقول في قصيدة "حياة مشقات" :

نَفَتْنِي مِنَ المُدْنِ العَوَاصِمِ عِزَّتِي + فَرُحْتُ بِأَطْرَافِ الوِلاَيَاتِ أَضْرِبُ[24]

وفي أواخر الحرب العالمية الأولى (1914م – 1918م) بدأ جهاده الأدبي بقوة، حين بدأت تتكشف ذوايا فرنسا وانكلترا وأطماعهما بالعرب. وكان إيمانه بالأمة العربية الواحدة فدفع عنها لأن العرب كلهم إخوته و جميع البلدان العربية بلاده وهو من أقوى الأصوات العربية الوطنية وأشدها في المهجر من الشمال والجنوب[25]
حيث يقول :

قد تسلحنا و كم من قلم * قصر الصارم عنه و القناة
فإذا كانت لكم أسلحة * غير أقلام الجواسيس فهاتوا
ما الذي أغرى أفاعيكم * بنا أ تراها جهلت أنا جواة[26]

وفي أشعاره كثيراما دعا العرب إلى التسلح بالعلم والمعرفة لأن العواطف والانفعال لا يجديان في رد حق أو دفع صميم. وهو تغنى بالعروبة والوحدة يعتز بها وقال متأثراً : "ما فارقت هذه البلاد قط، فقد حملتها معي إلى المهجر" فيقول :

إنّـا وإن تكن الشآم ديارنا * فقلوبنا للعُـرْب بالإجْمَـال
نهوى العراق ورافديه وما على * أرض الجزيرة من حصى ورمال
وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا * نروى بسائغ نيلها السلسال[27]

وقد قال في مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم :

غمر الأرض بأنوار النبوة * كوكب لم تدرك الشمس علوه
بينما الكون ظلام دامس * فتحت في مكة للنور كوة[28]

عرف فرحات بالذكاء الحاد وسرعة البديهة وقوة الذاكرة، وامتاز بالكرم والصدق والصراحة والثبات على المبدأ، إلى جانب الأنفة والإباء، قيل إنه باع مرة بعض حملانه ليسافر بثمنها إلى الأرجنتين عام 1933م ويشترك في حفلة الذكرى للملك فيصل الأول، تلك الحفلة التي أقامتها الجوالي العربية ودعت إليها الشاعر القروي رشيد سليم الخوري وإلياس فرحات. وهو امتاز بالعناد والتمرد والتحدي، وعاند اللغة والشعر وحذق فيهما.[29] ومنحته الحكومة السورية وسامها من الدرجة الأولى مكافأة له على جهاده القومي والأدبي . وفي عام 1947م فاز بجائزة المجمع العلمي المصري وقيمتها مائة جنيه مصري فأنفق كلها في سبيل إغاثة فلسطين مع أنه كان يعجز عن دفع الأقساط الشهرية من ثمن بيت يقطنه.[30] وفي ذلك يقول :

لا ذنب إلا على كف بليت بها * إن تأخذ النيل تعط والهرما[31]

وفى عام 1960م زار مصر وسوريا ولبنان وبعض الأقطار العربية، قضى فيها عاما ثم بعدها انصرف إلى البرازيل وأقام فيها.[32] ثم ظل إلياس فرحات يتغنى بالحب والحرية والعروبة والتسامح الديني حتى لقى ربه بتاريخ 25 تشرين الثاني 1976م في مهجره بالبرازيل.

آثاره

وله آثار عديدة كسب بها شهرة ضخمة وهي كما يلي :

1. "الرباعيات" التي أصدرها إلياس فرحات باللغة الفصحى في سان باولو سنة 1925م في شكل كتاب جيب صغير الحجم يحتوي على أكثر من مائة وسبعين رباعية شعرية. وهي على مقطوعات منوعة الأوزان والقوافي. صور فيها حياته وصفاته وثورته على القضاء ورسم آفات المجتمع العربي ووسائل إصلاحه بأسلوب ساخر، أحدث ذلك انفجارا كبيرا في المحيط المهجري واستقبلته الأقطار العربية بالتهليل والإكبار.[33]

2. "ديوان فرحات" صدر عام 1932م . حكى فيه حب المرأة وجمالها في مختلف الأشكال وأنواعها.[34]

3. وله ديوان في أربعة أجزاء "الربيع والصيف والشتاء والخريف" طبعه في سان باولو عام 1945م.[35]

4. كتاب "أحلام الراعي"، طبعه موسى كريم صاحب مجلة الشرق على نفقته عام 1953م وأهداها إلى المشتركين في مجلته. هذا الكتاب نقد اجتماعي لاذع يتسرب من حوار يدور بين الحملان وحارسها الكلب الأمين إلى مقام الحاكمين بأمرهم في أمور الدنيا والدين.[36]

5. وله ديوان "فواكه رجعية" وقد نشرته مجلة العربي عام 1973م، وله كتاب "عودة الغائب" بَيّن فيه ما شاهده في الوطن عندما زاره عام 1960م.

6. "الشهيدان" هو نظم الشعر بالعامية ثم اتجه إلى الفصيح ومن التقليد إلى الإبداع والتجديد. وأحرق قوالب الشعر الجاهلي. فهو صاحب الحكمة والأمثال ورقيق في الغزل ومؤمن بالأمة العربية ومهاجم الطائفية وقادر على تطويع القوافي لمعانيها وواصف الطبيعة والموضوعات الاجتماعية والوطنية والقومية. وقصائده قليلة في المدح والرثاء. وظهر في أشعاره معاناة من المشقات في سبيل الرزق وتحصيله في مهجره ما تنهار معه

أعصاب الصناديد. وهناك عانى من حياة خشنة قاسية، ويصورها تصويرا دقيقا.

التصوير الفني و المأسات في شعره

وتوجد الأشعار الكثيرة قد صور فيها تصويرا لمشقات الحياة واشترك فيها شعراء المهجر الأمريكي وممن رسموا كفاح المهاجر وشقائه وأسمعونا نغمات أساه وأنات شوقه إلى ربوعه القديمة هم رشيد أيوب (1871م - 1941م) في "ذكرى لبنان"، وقيصر المعلوف (1874م – 1964م) في قصيدته "الهجرة" ومحبوب الشرتوني (1855م-1931م) في "خطرات مغترب"، ونعمة قازان (1908م-1979م) في "معلقة الارز"، وندرة الحداد (1881م -1950م) في "ذكرى الغريب"، وأبو ماضي (1889م-1957م) في قصيدته " تأملات" و"لبنان" وما إلى ذلك.

وأما إلياس فرحات ففي قصيدته "حياة مشقات"، وأنشودته "وطني" ذكر تصوير المأسات في حياته المهجرية خاصة وفي قصائده المختلفة عامة. فكان له اليأس أو الحزن، مصدره الاغتراب والشعور بالشقاء والمشقات بعيدا عن الوطن فتظهر الحياة وكأنها القفر الموحش يبرز الوجود مظلما مخيفا، فإذا الشاعر لا حول له ولا قوة، وإذا هو يستسلم لليأس والحزن، وهو لا يملك إلا دموعه يرسلها أنات وزفرات. وهو يجد في الحياة كلها البؤس والشقاء والحرمان. أقبل عليها السواد، ليس هناك أمنية وأمل في مستقبلها، بل مستقبلها مظلم كحاضرها لا يبشر بالخير، إنما يبشر بالشر وبالحرب وبالدمار.[37] ويشف شعره كله عن كفاح حياته ومشقاتها ومشاعره الذاتية، وعن مجتمعه وعصره. فنظم إلياس فرحات الشعر فظهر فيه تصوير كفاح الحياة ومشقاتها في سبيل لقمة العيش تصويرا حيا وهو يقول في قصيدته "حياة مشقات" :

طَوَى الدَّهْرُ مِنْ عُمْرِي ثَلاثِينَ حِجَّةً * طَوَيْتُ بِهَا الأَصْقَاعَ أَسْعَى وَأَدْأَبُ

أُغَرِّبُ خَلْفَ الرِّزْقِ وَهْوَ مُشَرِّقٌ * وَأُقْسِمُ لَوْ شَرَّقْتُ كَانَ يُغَرِّبُ

وَمَرْكَبَةٍ لِلنَقْلِ رَاحَتْ يَجُرُّهَا * حِصَانَانِ: مُحْمَرٌّ هَزِيلٌ وَأَشْهَبُ

جَلَسْتُ إِلَى حُوذِيِّهَا وَوَرَاءَنَا * صَنَادِيقُ فِيهَا مَا يَسُرُّ وَيُعْجِبُ

تَبِينُ وَتَخْفَى فِي الرُّبَـى وَحِيَالهَا * فَيَحْسَبُهَا الرَاؤُونَ تَطْفُو وَتَرْسُـبُ
وَتَدْخُلُ قَلْبَ الغَابِ وَالصُّبْحُ مُسْفِرٌ * فَتَحْسَبُ أَنَّ اللَّيْلَ لِلَّيْـلِ مُعْقِـبُ
نَبِيتُ بِأَكْوَاخٍ خَلَتْ مِنْ أُنَاسِهَـا * وَقَامَ عَلَيْهَا البُومُ يَبْكِي وَيَنْـدُبُ
مُفَكَّكَـة جُدْرَانُـهَا وَسُقُوفُـهَا * يُطِلُّ عَلَيْنَا النَّجْـمُ مِنْهَا وَيَغْـرُبُ
فَنُمْسِي وَفِي أَجْفَانِنَا الشَّوْقُ لِلْكَرَى * وَنُضْحِي وَجَمْرُ السُّهْدِ فِيهِنَّ يَلْهَبُ[38]

فتحليل الأبيات المذكورة من ناحية التصوير الفني هو بأنها تقوم على تفعيلة بحر (الطويل) وتفعيلاته هي "فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن". والتقطيع العروضي فيما يلي :

فَنُمْسِي وَفِي أَجْفَانِنَا الشَّوْقُ لِلْكَرَى + وَنُضْحِي وَجَمْرُ السُّهْدِ فِيهِنَّ يَلْهَبُو
فنم سي| وفيْ أجْفا|نِنَشْشَوْ|قلِلْ كرىْ + ونصْ حيْ| وجمْ رسْسُهْ|دِفيْهِنْ | نيلْ هبوْ
فعولـن | مفـا عيلن | فعولـن| مفـا علن + فعولن | مفـاعيلن| فعولـن| مفـاعلن

القافية :يلْهَبُو ، الروي: الواو المضمومة.

فصورت في هذه القصيدة صورة قصصية اعتمد فيها الشاعر أسلوب الحكاية إضافة إلى كثير من التقنيات القصصية كالزمان والحركة التي تمثلها الأفعال (**طويت، نبيت، نمسي، يطل، تطفو وترسب**). ثم اختار الشاعر كلمات تعبر عن الطبيعة (**الغاب، والصبح، الأصقاع، الليل، النجم ، الصخر والبوم**) لأن الطبيعة تشاركه همومه وأحزانه. وفي الأبيات المذكورة توجد جمل كثيرة تشير إلى الاستعارة المكنية مثلا "طوى الدهر" ، "ومركبة...تطفو وترسب"، "قلب الغاب" و "قلب الصخر يشكو". فلفظة "الدهر" مشبه، شبهت بالثوب الذي حذف، والثوب هو المشبه به. ثم لفظة "مركبة" شبهها الشاعر بالزورق الذي يطفو ويرسب ف"الزورق" المشبه به وهو حذف، ثم كلمة "الغاب" شبه بالمخلوق وهو له قلب، والمخلوق مشبه به وهو حذف، ثم لفظة "الصخر" مشبه شبهت بالمخلوق الذي يشكو ، والمخلوق مشبه به وهو حذف. والشاعر أشار

بجملة "قام عليها البوم يبكي وينعب" إلى حالته الخرابية في حياته المهجرية.
فالأبيات المذكورة فيها تصوير فني من علم "البديع". ف(**أغرّبُ - شرَّقتُ ، مُشَرِّقٌ – يغرّبُ، تبين– تخفى، تطفو- ترسبُ، الصبحُ– الليلَ، يُطلُّ- يغربُ، فنمسي- نُضحي**) كلها من قسم "طباق إيجاب".[39] وأيضا يوجد فيها الخبر الابتداعي والخبر الطلبي. فالجملة (طوى الدهرُ) جملة فعلية فعلها ماضٍ. والجملة (**أغرّبُ خلفَ الرّزق**) جملة فعلية فعلها مضارع. ثم الجملة (**وراءَنا صناديقُ**) جملة اسمية. ومن الخبر الطلبي : (**ومركبةٍ للنقل**) هو المؤكد، ب "واو" بمعنى ربَّ. ثم (**أنَّ الليلَ لليلِ مُعْقِبُ**) هو أيضا المؤكد ب"أنّ". ومن المشاعر العاطفية هي حسرة وأسى وحزن على معانتهم في الرحلة. فألفاظ (**أشهبُ – حوذيّها– الصَّفا– للكرى- تعاف**) كلها جزلة فصيحة قوية الجرس. وألفاظ (**أسعى- ومركبةٍ للنقل- يشكو – يبكي – السهد**) كلها ملائمة لموضوع الغربة والمعاناة ثم ألفاظ (**أغرب- أقسم – نبيت – نشرب**) هي تكرار الفعل المضارع دلالة الأسى المتجدد. فالتجديد في شعره جاء مكلّلاً بكل قيود الفن الرفيع من وزن وقافية ولغة وأسلوب وموسيقا وجمال وأداء. وليس في النص لفظ غريب، غير واضح، على أن البساطة لا تتنافى مع إحكام السبك، إذ المقصود منها أن يكون واضح الدلالة، لا ينطوي على لبس أو تعقيد أو غموض.
ولم ترد كلمة الصورة في الشعر عرضا، ولكن قضية الصورة والتصوير ماثلة في ذهنه وهو يوظفها توظيفاً جيداً، ويستفيد من الخلفية التي في أذهان الناس من الكلمة. إلياس فرحات لقد سكن الوطن وعاشه بين أرواحه حقيقة وخيالات دائمة السير والجولان والدوران حوله، وهو القائل:

فإنني قد غبت عن لبنانا ما زلت أمشي تائهاً حيرانا[40]

وهو يقول في "السعادة" :

سعادة نفسي متى نلتقي * لعلك للآن لم نخلقي
قطعت البحار وجبت القفار * وحاولت جوب الفضاء النقي
خلقت شقيا و عشت شقيا * وأحسب اني أموت شقي[41]

فعمل فرحات في البرازيل وهو يبيع ويتجول ويمارس أعمالا متنوعة. وقد قال يصف حاله حين مكابدة الشقاء وقلة الحظ في أبياته التي يقول فيها :

يا عيد عدت وأدمـــعي منهـلّةٌ * والقلـبُ بين صوارمٍ ورماح
والصدر فارقه الرجاء فقد غدا * وكأنّـهُ بيـتٌ بلا مصباح

يمشي الأسى في داخلي متغلغلاً * بين الضلوع كمبضع الجـرّاح[42]

في الأبيات المذكورة يتذكر الشاعر أمه باكيا يوم العيد لأنها بعيدة عنه. وصور فيها سوء حاله الضعيفة بأن يستعير الصورة بألفاظها ومدلولها. وبلغ إلى حد كبير على جمال التصوير في الشعر مع رحابة في الأفق الإنساني ودقة الإحساس بشتى نواحي الحياة. فقال الشاعر إن العيد يسيل دموعه ورمى الرماح إليه حتى دخلت قلبه وتجري الدماء. ثم شبه الشاعر **"الصدر"** ب**"البيت الخالي من المصباح"** ثم **"الأسى"** ب**"مبضع الجراح"** الذي يخطر في ضلوعه ويتغلغل في داخلها. واستخدم لغة سهلة، فيها عذوبة وحلاوة، وتعبيراته قوية، ألفاظه موجبة.

ثم الآن أذكر فيما يلي مأسات حياة الشاعر إلياس فرحات التي صورها في أشعاره المختلفة.

المأسات في شعره

وأنشد إلياس فرحات الشعر فظهر فيه تصوير كفاح الحياة ومشقاتها في سبيل لقمة العيش تصويرا حيا، وقد سحر الشاعر في أول أمره بعظمة الغرب وتفوقه العلمي والصناعي. على أنه بعد أن خاض غمرات الجهاد هناك وذاق الأمرين في سبيل الرزق ظهرت له الناحية السوداء من المدنية الحديثة، هذا الكفاح المضني لأجل المال، وهذه الحياة الميكانيكية الخالية من الجمال، هالته مدنية الآلات والمعامل، مدنية السرعة والزحام والتكالب والخصام، فأخذ يصورها تصويرا ينفره منها ويحبب إليه جمال الطبيعة وبساطة الروح. حيث يقول في نشيده "موطني" :

نازح اقعده وجد مقيم * في الحشا بين خمود و اتقاد
كلما افتر له البدر الوسيم * عضه الحزن بأنياب حداد
يذكر العهد القديم فينادي * أين جنات النعيم من بلادي[43]

ففي شعره ما يشعرك بنفس ذاقت الأمرين في معترك الحياة. ولا تحتاج إلى أكثر من نظرة في قصيدته "بين الطفولة والشباب" لترى خوالجه الحساسة الثائرة على المادية بين الناس. وفيها يقول بين حاله، وهو فتى في منزل والديه بكفرشيما (لبنان)، وحاله في المهجر يجاهد ويعارك في سبيل الارتزاق فيقول :

واها على هاتيكم الليالي * واها على ساعاتها الغوالي
وحبذا "الغدير و الحياني" * وما لدي النهرين من جمال
وما لتلك الأرض من جلال

أمشي من الأحزان والأوجاع * كأن صنين على أضلاعي
أحاذر الذئاب والأفاعي * والناس عند الذهب اللماع
شر من الحيات والسباع
ظلمتني ظلمتـني يا دهر ماذا * تشاء هل لك عندي ثأر
كأن دمعي فوق خدي نـثر * كأن صدري من سقامي شعر
وكل ضلع من ضلوعي شطر
قد صرت من حزني وامتعاضي * كالهيكل الهاوي إلى الأرياض
إن أذكر العهد اللذيذ الما * ضي يختلط السواد بالبـياض
وتمطر العين على الأنقاض[44]

وكل البلاء عنده راجع إلى هذا التكالب على الأصفر الرنان. وما تقتضيه "المادية" من تنازع وظلم وبهتان![45] إن الشاعر يطوف المدن والقرى راكبا إليها البحر والبر ولكنه لا يلقى من ذلك إلا العناء والقهر. فهو أسير بيئة يود التخلص من نيرها وقرين هموم لا نجاة منها.[46] هذا الشعور الأليم لترك الوطن والاضطرار إلى الإقامة في دار غربة لا تقدم للمقيم بها سوى العناء والشقاء تحس بحرارته في نفثاته وخصوصا في قصيدته "حياة مشقات" التي يقول فيها :

لِئَنْ غَـرَّدَتْ لِلشَّاعِرِينَ بَلاَبِـلٌ * فَإِنَّ غُرَابَ الشُّؤْمِ حَوْلِيَ يَنْعَـبُ
وَإِنْ كَانَ عِلْمَاً ثَابِتَاً قَوْلُ بَعْضِهِمْ * لِكُلِّ امْرِئٍ نَجْمٌ فَنَجْمِي الْمُذَنَّـبُ
حَوَتْ سِلْعَاً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ يَبِيعُهَا * فَتَىً مَا أَسْتَحَلَّ البَيْعَ لَوْلا التَّغَـرُّبُ
نَبِيتُ بِأَكْوَاخٍ خَلَتْ مِنْ أُنَاسِهَـا * وَقَامَ عَلَيْهَا البُومُ يَبْكِي وَيَنْـدُبُ
عَلَيْهَا نُقُوشٌ لَمْ تُخَطَّطْ بِرِيشَـةٍ * تَظُنُّ صِبَاغَاً لَوْنَهَا وَهْوَ طُحْلُـبُ
يُغَنِّـي لَنَـا فِيهَا الْهَـوَاءُ كَأَنَّـهُ * يُنَوِّمُنَـا، وَالْبَرْدُ لِلنَّـوْمِ مُذْهِـبُ
فَعِزُّ الفَتَى الطَّاوِي الفَيَافِي مُسَدَّسٌ * كَمَا أَنَّ عِزَّ اللَّيْثِ نَابٌ وَمِخْلَـبُ
فَلاَ تَعْذِلِي صَحْبَاً دَرُوا بِي وَمَا عَنَوا * بِأَمْرِي فَهُمْ مِنِّي إِلَى الفَقْرِ أَقْـرَبُ[47]

فهذا هو فرحات الذي ألقتته النوى في الشقاء و أنزل الدهر عليه كل مصائبه و نوائبه.[48] ففي سنة 1933م اشترك في حفلة الذكرى للملك

فيصل الأول. في ذلك الوقت نظم الشعر تصويرا لمشقات الحياة.
وفرحات ماذا حصل من هجرته؟ فأصيب بالفقر في غربته كما أصيب في وطنه :

إني لأحمل ثقل الفقر منتصبا * عالى الجبين و ألقى الدهر مبتسما
وليس فقري طفلا عمره سنة * لكنه توأمي لما نميت نما[49]

أتراه كان يغادر لبنان لو كاشفته النجوم بما تخبئه له حياة الغربة من مناجآت قاسية.
لقد وجد نفسه في حالة يحسد معها أصدقاؤه على كسرة يأكلونها وقطرة يشربونها فكتب إليهم من داخلية البرازيل :

هنيئا لكم حول الخوان اجتماعكم * وصاحبكم يطوي الفيافي بلا زاد
وعندكم الماء النمير مسيله * جزاف على وجه الثرى وانا صد
وأولادكم في الجوخ تدفأ جسومهم * فما هكم إن تقبل البرد لولادي
فما شفعت بي نزعة عربية * ولا أدب تاهت به لغة الضاد
ولا وطن ناء لنا في ترابه * بقية أباء كرام و أجداد[50]

فلاقى من أثقال الحياة في الغربة ما حبب إليه حياة الوطن على علاتها.
إن الهجرة بعثرت آماله كما يبعثر الموج نثرات الزبد.
تبدأ حياة الشاعر في المهجر شقيا. وقلبه مكسور. لا أمل له ولا نجاة إلا في العمل. ولكن في أي حقل يعمل وهو الغريب الجاهل. التجارة تستلزم رأسمال والزراعة تتقاضى المهاجر جهود السنين الطويلة وما هو في حدسه إلا عابر سبيل. فحمل "الكشة". ويطوف بها على المنازل طارقا أبوابها عارضا سلعه بالإيماء والإشارة على ربات البيوت. وبعد التجوال طوال النهار في أحياء المدينة يعود بغلته إلى صاحب المتجر ليحاسب على ما باع وما بقى ويجدد محتويات صندوقه استعدادا لجولة الغد. بعد أسابيع قليلة تنضب موارد رزقه في أحياء المدينة فينتحي الضواحي ثم ينتقل إلى القرى والدساكر المجاورة بصندوق أضخم حجما وأثقل وزنا، لأنه جنى أرباحا وزادت ثقة التاجر به. ولا تمضي شهور حتى تراه متجولا في داخلية البلاد ساعيا على قدمه، وعلى كتفه صندوق يتراوح وزنه بين الخمسين والثمانين كيلو غرام وكلما توغل في المجاهل كلما اتسع له مجال الكسب لعدم وجود من يقتحم الأخطار وينافسه في الأسعار.[51] وهو يقول :

لِئَنْ كَانَ صَعْبَاً حَمْلُكِ الْهَمَّ وَالأذَى + فَحَمْلُكِ من النَّاسِ لاَ شَكَّ أَصْعَبُ

هذه هي المشقات التي عاناها أدبنا إلياس فرحات في سفره. وها هو نوع الحياة التي عاشها في المراحل الأولى من هجرته. هو جحيم كان لا بد من المرور به في الطريق إلى النعيم. ونزف عليها قوي الشباب وهدر أغلى حقبة من العمر دون جدوى.[52]

وهو أحسن من وصف حياة البائع المتجول:

فَلاَ تَسْأَلُوا عَنِّي وَحَظِّـي فَإِنَّنَـا * لأَمْثَال أَهْل الشَّرْق وَالْغَرْبِ مَضْرَبُ

وَنَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُ الخَيْلُ تَارَةً * وَطَوْرَاً تَعَافُ الخَيْلُ مَا نَحْنُ نَشْرَبُ

حَيَاةُ مَشَقَّـاتٍ وَلَكِنْ لِبُعْدِهَـا * عَنِ الذُّلِّ تَصْفُو لِلأَبِـيِّ وَتَعْـذُبُ

طَوَى الدَّهْرُ مِنْ عُمْرِي ثَلاثِينَ حِجَّةً طَوَيْتُ بِهَا الأَصْقَاعَ أَسْعَى وَأَدْأَبُ[53]

هذه الصورة الموجعة التي صورها فرحات. ثلاثون عاما سلخها من شبابه في حياة التجول إلى أن توفق إلى صناعي كبير يعهد إليه بمساطر بضائعه لكي يعرضها على تجار الداخيلية فارتقى إلى منزلة وكيل متجول، و لكن حياة الوكيل لم تكن أيسر وأهنأ. ها هو يرسمها في لوحة الشعر :

وَرَاحَتْ كَأَنَّ البَرَّ بَحْـرٌ نِجَـادُهُ * وَأَعْوَارهُ أَمْوَاجـهُ، وَ هْيَ مَرْكَـبُ

تَمُـرُّ عَلَى صُمِّ الصَّفَـا عَجَلاتُهَا * فَنَسْمَعُ قَلْبَ الصَّخْرِ يَشْكُو وَيَصْخَبُ

اتسمت حياه فرحات بالحريه منذ طفولته، حرية التفكّر وحرية التصرف، فشّب مطبوعا عليها، وكان أن غذتها بيئة البرازيل بما فيها من مفاهيم جديدة، ورفدتها بيئة المهاجرين العرب بما فيها من تناقضات وآراء مختلفة، و أنضجتها مشقات الحياه التي عاناها منذ نزوله أرض المهجر، فأصبحت هذه الحرية دينه وأهم مبدأ عنده.

أخيرا أقول ذاك "فرحات" سعى في العربات في الفيافي، يطأ الأشواك أشواك الحياة، وهو حاف، ينهل البؤس فيعطي الرائعات، كالسلاف. وهو لم ينظم الشعر إلا عندما يرد عليه من الخواظر السانحة. ينظم ماشيا في السوق، أو مسافرا في الحافلة أو في القطار أو نائما. فهو في بداية هجرته كان نجما ضئيلا ينبعث من سماء الأدب، وشجرة ذات أوراق مجففة ساقها ضعيفة وجذورها واهية في روضة الأدب. ولكن بعدما انصرم ستة

عشر عاما كان في حديقة الشعر العربي دوحة شامخة ناطحة السماء لا تستطيع الطيور أن تصل إلى قمتها. وإن له ذات خفية وشخصية متمردة وهي الفيض الأقوى في شعره والعامل الأظهر في تفكيره والناحية الأبعد إشراقا في أدبه المهجري لأنه كان قوي العاطفة وأصيل الطباع.

المراجع والمصادر

1. ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1994م)، الطبعة الثالثة، ج 13، ص 326
2. جبران مسعود، الرائد (دار للملايين، 2005)، الطبعة الثالثة، ص 674
3. كامل السوافيري، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر (القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية، 1998م)، الطبعة الأولى، ص 207
4. المصدر السابق، ص 210
5. أحمد ش، تاريخ الشعر العربي الحديث (دار الجيل 1971م)، ص321
6. جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية (معهد الدرسات العربية العالية 1956)، ص 249
7. المصدر السابق، ص 249؛ عيسى الناعوري، أدب المهجر (مصر: دار المعاد، ط 1، 1959م)، ص 95
8. إن أصل لفظة "القرادي" من "القرد". يقال العرب: قَرَدَ لسان فلان: كانت به لجلجةٌ، أي أن اللسان يتلجلج عند غنائها لسرعة وزنها. وفي الاصطلاح ، القرادي: لون من ألوان الفن الشعبي التعبيري والمغنى، يعتمد فيه الشاعر على طاقته الصوتية ، والإبداعية لإختيار القالب اللحني والكلمات المغناة. وأما خصائصه فهي فيما يلي: وجود اللازمَةِ والدَوْر . ويعني باللازمةِ تلك الطلعة التي يبدأ الشاعِرُ الشعبي، أو الحادي، أو الزاجِلُ بها قرّاديته ،ويقوم الجمهورُ أو الكورس بتَردادها خلف الشاعر مرة أو مرتين . وهذا يعني مشاركة الجمهور للشاعر بأداءِ هذا اللون من الغناء الشعبي. وهذا مثال على اللازمة:

ملقاكمْ أحلى من الشهدْ + ومن النرجسْ واليسمينْ
ما في عِنّا غير الوردْ + نجيبو، نهديهْ للحلوينْ

وتجد الإشارة هنا أن الجمهور قد يقوم بترديد اللازمة كلها (الأربعة أشطر)، أو الشطرين الثالث والرابع. ويعتمد هذا على الثقافة الشعبية الشائعة في المنطقة التي يغنى فيها الشاعر الشعبي. وغلبا ما يصاحب القرادي الإيقاع على الطلبة ليزيد من حيوية الأداء عند الجمهور والشاعر على حد السواء. أما الدور، فيتكون من أربعة أشطر أخرى، ويجب أن تتشابه (في هذا المثال من القرادي) بالقافية في الأشطر الثلاثة الأولى، أما الشطر الرابع فيأتي مشابها لقافية الشطر الأخير من اللازمة. مثلا :

يا أغلى من كل الناسْ + عيشوف قلبي والإحساس
إنتو الذهبْ، إنتو الماسْ + إنتو شوقي والحنينْ

و ما يكاد الشاعر ينتهي من أداء دوره (وهو ينتهي هنا بكلمة الحنين) حتى يبدأ الجمهور بترديد اللازمة (ما في عنا غير الورد .....). وفي الغالب ما يكون هناك أكثر من شاعر شعبي واحد في إحياء الاحتفال فيقوم كل واحد منهم بتبادل الأدوار إلى الحد الذي يرى فيه أحدهم الانتقال إلى لون أخر من الغناء، أو يأتي بقرادية أخرى مثلا وقد يشارك في أداء القرادية الواحدة أربعة أو خمسة شعراء ، ويعتبر هذا من خصائص القرادي (نجيب صبري يعاقب، القرادي في فلسطين، ص 5).
9. أدب المهجر، ص 249
10. تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 321

١١. عيسى الناعوري، إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر(عمان: دار النشر والتوزيع والتعهدات، 1956م)، ص 33؛ أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 251
12. إلياس فرحات، أحلام الراعي 1952، ص 66
١٣. تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 321
14. ديوان فرحات، ص 50
15. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 249
16. تاريخ الشعر العربي الحديث ص 321
17. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 149-250
١٨. توفيق ضعون، ذكرى المهجر، ص 256؛ إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر، ص 33
19. ديوان فرحات، ص 89
٢٠. سمير بدوان قطامي، إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر (مصر : دار المعارف، 1971م)، ص 55
٢١. تاريخ الشعر العربي الحديث ص 321
٢٢. يعقوب العودات، الناطقون بالضاد في الأمريكا الجنوبية (بيروت : دار ريحاني، 1956م)، ج 1، ص 230
٢٣. إلياس فرحات، ديوان الصيف (سان باولو عام 1945م) ص 244
٢٤. أحلام الراعي، ص 60
٢٥. تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 321
26. ديوان فرحات، ص 98
٢٩. إلياس فرحات، ديوان الصيف، ص 54
28. ديوان الصيف، ص 80
29. أدبنا و أدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 256.
٣٠. تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 321
٣١. إلياس فرحات، ديوان الربيع، ص 95
٣٢. تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 321
٣٣. المصدر السابق، ص 322؛ أدبنا و أدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 252
٣٤. المصدر السابق، ص 322؛ أدبنا و أدباؤنا في المهاجر ألمريكية، ص 155
٣٥. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 265
36. المصدر السابق، ص 264-265؛ تاريخ الشعر العربي الحديث، ص 322
٣٩. فوزي معلوف، على بساط الريح (مصر 1919م)، ص 66- 78
٣٨. أحلام الراعي، ص 66
٣٩. الطباق : هو الجمع بين المعنيين المتقابلين ، أبو خالد السيد عبد الأحد القاسمي، بدور الفصاحة (داكا: إمدادية لائبريري چوك بازار، لا. تا.)، ص 170.
٤٠. ديوان فرحات، ص 218
٤١. أحلام الراعي، ص 96
٤٢. إلياس فرحات، ديوان الربيع، ص 179
٤٣. المصدر السابق، ص 75
88. ديوان فرحات، ص 125
45. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 295

٤٦. أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث (دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، 1998م)، ص 290
47. أحلام الراعي، ص 60
٤٨. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 255
٤٩. ديوان الصيف، ص 188
٥٠. ديوان فرحات، ص 98
51. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 19
٥٢. المصدر السابق، ص 21
53. أحلام الراعي، ص 60